شبران وطوله اربعة اشبار وجمجمة رأسه كالقبة وترجد تحت الارض اسنان مثل انياب الفيلة بيض كالثلج ثقيلة في الواحد منها مائتا من لا يدري لاي حيوان هي فلعلها من دوابهم تحمل الى خوارزم الا ان طريقهم في وادٍ من الترك ويشترى من تلك الاسنان في خوارزم بثمن جيد تتخذ منها الامشاط والحقاق وغيرها كما تتخذ من العاج بل هي اقوى من العاج لا تتكسر البتة "

الدكتور امين المعلوف

مناجاة الاحلام وقرع الاوهام

لقد كثر الآن تحدث الناس بغرائب افعال العقل او النفس كما يقال ايضاً وسائر افعال الجهاز العصبي الخارجة عن المألوف من مثل التخيُّلات والشعور بما هو فوق طاقة الحواس الاعتيادية وانطباق ذلك في بعض الاحيان على الواقع مما يخلط كثيراً على العامة وبعض الخاصة ايضاً. واشتدَّت المناضلة بين الباحثين فذهب بعضهم الى ان هذه الغرائب من خوارق الاعمال التي لا تنطبق على النواميس الطبيعيَّة وعلَّلها بانها من افعال الارواح المحيطة بنا. ونقل بعض الجرائد العربيَّة تصريحات المستر ستد بما وقع له ولبعض اشياعه ونسبتهم ذلك الى مناجاة الارواح. وقد كتبت مقالة في الجريدة اجابةً لاقتراح بعضهم ادفع هذا الزعم نافيًا الغرابة غير الطبيعية فيه ومطبقًا الصحيح منها على نواميس العلم الطبيعي وعلم الامراض العصبيَّة. ونقل المقتطف مساجلة عالمين طبيعيين يذهب كلٌّ منهما مذهباً مخالفاً للآخر. فرأيت ان اسهب الكلام هنا للالمام بالموضوع من كل اطرافه لكي يتيسر للناظر بالمقابلة والاستقراء والاستناد الى العلم الطبيعي ان يحكم بما هو اقرب الى الحقيقة. وانا لا اشك في ان كل ما يجري فينا من هذا القبيل انما يجري تبعاً لقواعد طبيعيَّة نظير سائر ما يقع في الطبيعة مما هو مقرَّر اليوم انهُ بحث طبيعيٌّ بحت. ولا اشك كذلك ان معلوماتنا الطبيعية اليوم كافية وحدها لتعليل ذلك تعليلاً يزيل عنهُ كل غرابة الا ما كان من قبيل الغرائب الطبيعيَّة فقط

ان غرائب افعال العقل والجهاز العصبي معروفة للانسان منذ القديم واشهرها الاحلام التي تعرض لهُ وهو نائم — وفي تعرض للحيوان ايضاً — وقد كانت سبباً من اكبر الاسباب لاعتقاد الانسان ان فيهِ قوة غريبة عن جسمهِ تنفك عنهُ في حالة النوم وتطوف المعاهد منتقلة من مكان الى مكان ومن احساس الى احساس ثم ترجع اليهِ في اليقظة وكثيراً ما

تصدق في الانباء التي تنقلها مما حمل الاكثرين على الاعتقاد بها وظن بعضهم انهُ يمكن من مراقبة احوالها ان يستخرجوا احكاماً مطلقة والفوا الكتب في تفسيرها حشوها تارةً بالخطل وتارةً بالهذيان

وقد كانت اوهام الانسان في اليقظة كثيرة جدًّا في اول الامر لقلة تمرُّنهِ ما حولهُ من قوى الطبيعة اذ كل ما هو مألوف معروف لنا اليوم كان يبدو غريبًا لهُ . وقد بنى عليها كثيرًا من اقاصيصهِ المثولوجيَّة وحكاياتهِ الخرافية واشتغل بها زمانًا طويلاً قبل ان استهلك كثيرًا منها بالعلم شيئًا فشيئًا واقرَّها في مكانها الحقيقي

وقد كانت الامراض العصبية ولاسيما العقلية والمستيرية نظرًا لغرابة ظواهرها بالنسبة الى سائر امراض الجسم محلَّ استغرابهِ بل موضوع تكهُّنهِ وتنزُّههِ حتى ان الالفاظ التي استعملت للدلالة عليها في كل اللغات تدل دلالةً صريحة على الاعتقاد بانها حالات مستفاضة على الجسم غريبة عن مادَّتهِ وعن جوهر قواهُ كأن يقال ان بصاحبها مسًّا او دخلاً إشارةً الى الروح الغريبة الحالَّة فيهِ . وكم عذَّب النساء المستيريات وحلَّت بهنَّ النقم لاعنبا وهن ساحرات واحرقن ايضًا تخلصًا من الشيطان الحال فيهنَّ قبل ان تدار كهنَّ العلم برأفتهِ . ولا يزال هذا الاعتقاد شائعًا عند كثيرين حتى اليوم وان تلطَّف بعضهم في تسميتهِ كأن يقول ان الحالَّ شيخ . ورأفوا في معاملة صاحبهِ فاحلُّوا الرحمة محلَّ النقمة وعالجوهُ بالتعاويذ والرقى والقراءات وما شاكل . وكما انهم نسبوا بعض الحالات العصبيَّة الشديدة الوطأة الى الارواح الشريرة واخذوا في معاملة اصحابها نسبوا كذلك بعض الحالات العصبيَّة التي كانت تبدو لهم اللطف من تلك على الجسم المصاب بها الى الارواح الصالحة ورفعوا اصحابها الى مقام الاولياء والانبياء. ثم اخذ هذا الاعتقاد يضعف حتى اثبت العلم اليوم ان مثل هذه الحالات ليست سوى امراض عصبيَّة كسائر امراض الجسم ولها احكام طبيعيَّة مثلها حتى في غرابتها

وكأنَّ جمهور المتعلمين الراقين لم يتفكوا الاعتقاد بالمصدر الغريب في مثل هذه الحالات الاَّ عمَّا كان يبدو خشنًا فظًّا واما الجمُّ الغفير فلا يزال حتى اليوم يعتقد ان في اللطيف منها محلاً للنظر ومتسعًا للقول . وكثيرون يميلون الى نسبتها الى الارواح للاعتقاد المتأصل فيهم ان لم يكن رهبةً فرغبةً والذي هو بقيَّة راقية من مجموع تلك الاعتقادات القديمة الخشنة

وقد تنبَّه لهذه المسائل طوائف كثيرة من اهل الادب والعلم في اوربا واميركا وخصوصًا في انكلترا والفوا لها الجمعيات الكثيرة ليبلسوا البحث فيها حلَّة علميَّة اشترك فيها المقتنع والواهم والمتردد وانضمَّ اليهم الدجَّال ايضًا وكلٌّ واجدٌ في ذلك مصلحتهُ

فلكي يمكن البحث في هذه المسائل على اسلوب يكون منهُ فائدة للعلم لم يكن بدٌّ من تحليلها قبل تعليلها لمعرفة التصحيح فيها من المخلق والممكن من غير الممكن . فلا تحدثنا اعمال المشعوذين الذين يأتون امامنا اعمالاً كثيرة غريبة صناعية كوضع الشيء في مكانهِ ثم اخراجهُ من مكان آخر وكابتلاع السيوف والسكاكين ولم يبلع منها شيء والتكاثم مع اشخاص متباعدين والمتكلم واحد وغير ذلك من الامور المدهشة التي يجيزونها على الناظرين وليس فيها شيء من الغرابة سوى مهارة الصناعة فان امرها اليوم معروف للخاصة والعامة وانما نقتصر هنا على المسائل المقررة اليوم والتي يعترف بها العلم

ان جميع الغرائب التي تعرض للانسان نظراً على شعورهِ فيحسهُ او يعلم بما هو لوق طائفة مشاعرهِ وادراكهِ في حالتهِ الاعتيادية وتنحصر جميعها في ما نسميهِ هنا على وجه الاطلاق بالتخيلات وان اختلفت مسمياتها بحسب مدلولاتها وذلك بقطع النظر عن صحتها وعدمها لانها في اعتقادنا صحيحة كلها سواء طابقت الواقع كأن يرى الانسان وهو في مكان صورة صديق لهُ في مكان آخر مثلاً اولم تطابق الواقع كأن يحلم انهُ طائر في الجوّ كما يحصل كثيراً للاطفال في احلامهم وهم نيام . فكلاهما تخيّل حاصل لا يجوز للعلم ان ينفيهُ لئلا يتلجلج في تعليلهِ وكلاهما شعور حقيقي وان اختلف سببهما كما سيجيء

وما اطلقت اسم التخيلات على كل هذه الغرائب مع قطع النظر عن اسبابها الظاهرة والباطنة والبعيدة والقريبة الا لانضمامها تحت اسم جنس باعتبار ان اصلها واحد يسهل تعليلها وهي تشمل احلام النوم واحلام اليقظة كرؤية الاشباح وسماع الاصوات والاحساس باللمسات ومناجاة النفس التي يطلقون عليها اسم مناجاة الارواح وقراءة الافكار والوقوف على الانباء البعيدة وغير ذلك مما هو خارج عن مألوف الحواس والادراك وبالحقيقة كلها في الغرابة سواء والذي يستوقف النظر في احدها يجب ان يستوقفهُ في الآخر فليست قراءة الافكار باغرب من الاحلام ولا مناجاة الارواح باغرب من تخيل سماع الاصوات وكلها من مصدر واحد

وقبل التوسع في الموضوع لا بدَّ لي من التنبيه الى ان كل ما يقال عن الانباء بالمستقبل لا حقيقة لهُ مطلقاً الا ما كان منهُ في حكم الواقع كان ينبيء الانسان بامرٍ مقبلٍ يشرف على امر حاصل وهذا يدخل حينئذٍ في موضوع البحث في ما هو كائن في الحال حقيقة مثال ذلك — كان عندي مريض منذ عشرين سنة وكان بهِ اختلاط ذهن هستيري طال بهِ اكثر من شهرين تقلّب المريض فيهما على حالات مختلفة اظهر فيها عدَّة غرائب منها انهُ عرض لهُ في طور من اطوار مرضهِ رعاف تكرَّر مراراً عديدة في اول الامر لم نكن ندري

بالرعاف الاّ من مشاهدته ولكن بعد ان تكرّر صار المريض ينبّه به وبمقداره تقريباً قبل حصوله بنحو اربع وعشرين ساعة وكان انباؤه يصدق وتعليل ذلك بسيط لان الرعاف الذي كان يحصل لم تكن هيئاته تقع في الحال بل لا بد انهُ كان يسبقهُ بعض تغيرات احتقانية وغيرها فصار المريض اول ما يشعر بها يعرف انهُ سيعقبها رعاف فينذر به ومن شدتها وخفتها ينذر بمقدار الدم الذي سيرعفهُ فانباؤهُ هذا ليس انباء بالمستقبل بل تقرير للواقع ولذلك كل ما تسمعهُ من قبيل الانباء بالمستقبل ان لم يكن لهُ مثل هذه المسوّغات مما يجعلهُ انباء بالواقع حقيقة فهو مخرفة ودجّل من قائلهِ

وما نبّهت الى ذلك الاّ لخلط الناس والعلماء انفسهم في هذه الغرائب واعتقادهم بان الانباء بالمستقبل من الامور المقرّرة الداخلة ضمنها . واعجب من ذلك اني قرأت من مدة قريبة في احدى المجلات الفرنساوية بحثاً لطبيب في هذا الموضوع وقد عدّ فيهِ الانباء بالمستقبل من الامور الداخلة فيهِ وهذا جهلٌ فادح يُستعظم خصوصاً من طبيب يجب ان يكون ملمًّا بنواميس هذه الغرائب لان هذه الغرائب لا تحدث اعتباطاً كما يتوهم بعضهم بل تعرض للناس بناء على نواميس مقررة لا تُعرف عنها سواء كان في الصحة او المرض وتسير فيهما بانتظام على حدٍّ سوى

فنحن الان بين اقوال ثلاثة من ذوي المقام في الادب والعلم : تصريحات ستد الذي يزعم انهُ يكتب احياناً متأثرًا تحت سلطان الارواح وانهُ رأى صورة ابنهِ المتوفى وسمعهُ يخاطبهُ . ونفي العالم الرياضي نيوكم لهذه الغرائب ونسبة بعضها الى هواجس لم يمعن بالبحث عن سببها وانما نسب صحتها في بعض الاحيان الى مجرّد الاتفاق باعتبار انها من الامور الممكنة . وتسليم العالم الطبيعي السر اوليفر لدج بحصول هذه الغرائب من تفاعل العقول او النفوس بناء على مبدإ التليثيا وميلهِ الى ترجيح سببها الروحاني مما يجعل صدقها نتيجة للشعور بامر واقع لا اتفاقاً . وقد حاول ان يثني نسبتها الى الاتفاق باحصاءات تنفي الصدفة وتؤيد الارتباط السببي في زعمهِ

والحقيقة ان كلاًّ منهم على صواب وخطاء في آنٍ واحد . فستد صادق في قولهِ انهُ رأى صورة ابنهِ وانهُ يشعر في نفسهِ بانهُ يكتب احياناً تحت سلطان شخص آخر . وانما هو مخطئ في ادعائهِ ان ذلك من فعل ارواح غريبة عنهُ ولو درى انهُ مستهوىً استهواه ذاتياً من جهة ومتخيل من جهة اخرى ما في ذاكرتهِ من المحفوظات لاسباب معلومة لنا اليوم جيدًا من درس نواميس الجهاز العصبي في الصحة والمرض بما عبّرنا عنهُ هنا بمناجاة الاحلام وقرع

الاوهام " لما كان في قوله شيء يؤخذ عليه . ونيوكم مصيب في نفيه التفاعل الروحاني عن هذه الغرائب ولكنه مخطيء في انكاره سببها الطبيعي وتعويله في صدقها على الاتفاق وحده وان كان للاتفاق دخل في بعض الاحيان . واوليفر لدج مصيب في ان هذه الغرائب تجري على نواميس معلومة لنا اليوم بالتقريب ولكن خطاءه في نسبة ذلك الى تفاعل العقول او الارواح لا يغتفر لاسيما وان في المعلومات الطبيعية اليوم مندوحة لنا عن الخروج بها الى مثل هذا التعليل الغريب

وقد وقعت انا نفسي منذ ثلاث وثلاثين سنة في نفس الخطاء الذي وقع فيه اليوم نيوكم بتعليل صدق هذه الغرائب بالاتفاق وذلك في حادثة طبيب انكليزي زعم انه سمع وهو مار في لندن بالقرب من بيت احد اصدقائه الذي كان يومئذٍ بمدينة حلب صوت صديقه هذا يناديه ثلاثاً ثم علم عند وصول البريد ان صاحبه كان في تلك الدقيقة يحتضر . وقد تناولت هذا النبأ في ذلك العهد الجمعيات النفسية في انكلترا ودرّبت به كثيراً حتى ان الجمعيات العلمية شاركتها في هذا البحث وكتبت الجرائد فيه مقالات ضالية . وكنت يومئذٍ في الاستانة فاطلعت في جريدة " الكوريه دوريان " على فصل طويل عقدته جريدة " الكونستيتيسيونال " الباريزية لهذا الموضوع ونقلته عنها جريدة الاستانة المذكورة جاء فيه كاتبه على امور كثيرة من حوادث التخيلات الغريبة نسل اكثرها مما وقع لبعض مشاهير الرجال في التاريخ كنابوليون وقيصر وسواهما من انهم كانوا يرون اشباحاً ويسمعون اصواتاً تخاطبهم لا حقيقة لها في الظاهر وذهب الى انها من الغرائب التي لا تدرك . فكتبت في ذلك الحين رداً عليه باللغة الفرنساوية نشر في جريدة " الكوريه دوريان " المذكورة في ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٦ ونقلته الى العربية مجلة الطبيب في بيروت . وقد حاولت في هذا الرد ان ادفع عن مثل هذه الحوادث كل غرابة غير طبيعية مستنداً في ذلك الى علم امراض العقل وما يعرض من التخيلات وانخداع الحواس في الجنون وفي سائر الحالات العصبية التدريجية التي بين الصحة والمرض وحصرت تعليل ذلك بما سميته هنا فرع الاوهام ويراد به فرع محفوظات الذاكرة لمراكز الحواس بالارتداد من الباطن الى الظاهر وذلك في الاعصاب المتهيجة المنصرفة الى التفكير في موضوع ما او الملتفتة اليه لمناسبة ما كمناسبة المرور بالبيت الباعث على التذكر بصاحبه . وعللت صحة النبإ اذا صدق قائله بما يأتي :

" والاعتراض الذي يوجه الى ذلك في مثل هذه الاحوال هو هذا : لماذا تتم الامور احياناً كما تنبيء عنها او توحي بها التخيلات ؟ والجواب على ذلك وعلى الاحلام ايضاً بسيط

وهو ان كل ممكن قد يتحقق احياناً ولكنهُ لا يتحقق دائماً ولذلك كانت اكثر التخيلات لا تتم حقيقة "اهـ . اي انني علمت ما يصحُّ منها بالاتفاق كما علمهُ نيوكم الآن ولكن الخطأ الذي كان يفتخر حينئذٍ لا يفتخر الآن بعد ان تقدمت العلوم الطبيعيَّة وباثولوجية الامراض العصبيَّة هذا التقدم الباهر

وازيد على ذلك اليوم بقولي ان غير الممكن لا يتحقق مطلقاً كأن يحلم الانسان انهُ طائر في الجو او ساقط من مكان عالٍ وهو لم يسقط فلا يمكن ان يكون مثل هذا الحلم موعزاً بهِ من الخارج او معبراً بهِ عن حقيقة واقعة مع ان صاحبهُ يحس ويرى انهُ كذلك . ويعلل في الاول بفرع الاوهام لذاكرتهِ وتجسمها لدى حواسهِ بما يكون قد ذكر لهُ في طفوليته من مثل هذه الاخبار السقيمة وغيرها من الخرافات السخيفة التي يغشون بها دماغ الطفل . وتعليلهُ في الثاني تعب طرأ على الجسم وهو ناتج من وضع او سوء هضم وبانتقال الافكار الى المناسبات والحواس في كل انتقل "به الشعور" من ضيق الى ضيق الى هول السقوط

ولكن هذا التعليل وان انطبق على الانفعالات الذاتيَّة المتحكمة من الباطن وصح على كل التخيلات الذاتيَّة التي تعرض للانسان في الحلم واليقظة من رؤية الاشباح الى مناجاة الارواح التي هي عبارة عن مناجاة احلام الانسان نفسهِ بناء على ناموس فرع تحضرات الذاكرة للاعصاب المتهيجة وناموس الاستهواء الذاتي الا انهُ توجد حالات أُخرى مصدرها خارجي محض لا ينطبق عليها هذا التعليل . وتعليل صدقها بالاتفاق وحدهُ لا يكفي مثل تراءة الافكار والعلم عن بعد مما هو مقرر اسرهُ في العلم ولا يجوز الشك فيه اليوم

على ان العلوم الطبيعيَّة والعلوم الباثولوجية العصبية قد تقدمت كثيراً من ذلك العهد واكتشفت غرائب كثيرة فيها غير خارجة في اعمالها عن نواميس الطبيعة حتى صار يجوز لنا فهم اكثر اعمال العقل غموضاً واستنتاج المجهول بناء على المعلوم

غير ان المتعصبين من العلماء — وما اصعبهم لضعف البينة بل لاقتصارهم في البحث على الجزئيات ولقلة تعويلهم على الاستقراء في الكليات — لا يزالون يميلون الى نسبة هذه الغرائب الى امور غير طبيعيَّة مع علمهم الاكيد انها في غرابتها تسير على نواميس معلومة كغرائب الامراض العصبية مثلاً انقياداً لاوهامهم التي ورثوها ابًا عن جد . وبعضهم يتصاغ اضطراراً الى التسليم بطبيعتها المادية ولكن ما رسخ في ذهنهِ بالوراثة يحملهُ على الوقوف موقف المتردد غير الجازم متوقعاً ان يكشف لهُ العلم نواميس طبيعيَّة جديدة غير معروفة لهُ اليوم . ولو تدبر هذا المتردد والمتمني في سره فشل العلم في نفي امانيهِ لعلم أنهُ لا ينتظر ان يكتشف في الطبيعة

من يوم عرف ناموس تحول القوى نواميس جديدة اصولها الطبيعية مجهولة بل كل ما ينتظر انما هو زيادة التوسع في معرفة تحولات هذه القوى واستخدامها لغرضنا بناء على انها هي والمادة من اصل واحد. والمعلوم اليوم من هذه التحولات البديعة من حركة الى حرارة الى نور الى كهربائية الى اشعة رنتجن الى اشعة الراديوم الى الاشعة الكيماوية التي ترقق الاجسام وتشفها واستخدام ذلك لنقل الاصوات بالتلفون وحفظها بالفونوغراف وخزن حركاتنا في السينماتوغراف ونقل اخبارنا في الفضاء بتلغراف مركوني ونقل المرئيات الى بعد كل ذلك كاف لان يجلو لنا اليوم اشد هذه المسائل غموضاً . واذا اضفنا الى ذلك علمنا بان العالم لا فراغ فيه وهذا يستلزم ان لا يضيع فيه شيء بل يحفظ فيه ويتحول ليجيئنا ليس من عروض هذه الغرائب لنا احياناً بل من عدم عروضها لنا غالباً لان عروضها هنا هو الشاذ وعدمهُ كان يجب ان يكون الشاذ فاذا كان عروض هذه الغرائب لا يتيسر دائماً فلحوائل طبيعيةٌ ازال العلم الطبيعي اليوم كثيراً منها وايدهُ علم بيكولوجية الدماغ والامراض العصبية نفسها كما ابنت ذلك في مجلد السنة الثالثة من مجلتي الشفاء في حادثة اختلاط ذهن هستيري من اغرب ما وقع لي ولسواي ايضاً

وبالحقيقة ان اثر كل حركة مادية او نبضة فكر يجب ان يصل الى كل شيء ويجب ان يحس بهِ كل شيء بناء على ناموس حفظ القوى واذا كنا لا نشعر بهِ دائماً فلاسباب مادية اما لضعف في حواسنا واما لضعف الاثر نفسهِ وتبدده قبل وصوله الينا فاذا امكننا ان نقوي مشاعرنا او نزيل الحوائل الأخر لم يصعب علينا ان نقف على كل ممتنع علينا في حالتنا الاعتيادية . وقد جاءت الاكتشافات المذكورة سابقاً مؤيدة لذلك كما قلت في الشفاء من ان لا بد لكل فعل من فاعل وقابل وناقل وقد تمكنا بالتلفون من تقوية الناقل ووقفنا من قراءة الافكار على قوة القابل وتمكنا كذلك بتلغراف مركوني من تقوية الفاعل والقابل معاً وعرفنا كذلك ان هذا القابل قد يشتد تأثرهُ جداً في بعض الحالات العصبية المرضية الى حد ان الانسان يقدر ان يعلم عن بعد شاسع حركات سواهُ ويسمع كلامهُ كأنهُ على كتف منهُ ولكن يشترط في ذلك شروط تجعل هذا العمل خاضعاً لنواميس معلومة نظير سائر النواميس الطبيعية كأن لا يدرك الانسان الاَّ حركات اشخاص معلومين لهُ بهم علاقة معلومة ولو بهما ابعدوا عنهُ ولا يدرك حركات سواهم ولو كانوا بالقرب منهُ لان اعصابهُ تكون متكيفة لقبول تأثيرات اولئك لشدة الاشتغال بهم خلافاً لهؤلاء

واذا كان هناك محلٌّ للشك فدرس غرائب الامراض العصبية الهستيرية كاف لان يزيلهُ اذ أثبت استطاعة الانسان لان يتأثر بالمؤثرات الخارجية فيرى عن بُعد شاسع صور

الاشخاص ويسمع كلامهم بما يفسّر لنا جيدًا شدة تهيج القابل فيهم حتى يصير يحسّ بما لا يحسّ به الانسان عادة ولان يفسّر لنا كذلك حقيقة التخيلات الذاتية الصادرة من الباطن والتي هي سبب وهم مسند والشياعر بان ارواحًا تخاطبهم او انهم يفعلون متأثرين بسلطان غيرهم

فلا يخفى ان اصحاب المرض العصبي المستيري موصوفون بقوة الذاكرة حتى ان في وسع بعضهم في هياج مرضهم ان يذكروا ادق دقائق ما جرى لهم في حياتهم كأن الذاكرة آلة فونوغرافية سيناتوغرافية حقيقية ينطبع على صفحاتها كل ما يمرّ بها من كلي وجزئي فاذا عرض ما هيج هذه الصفحات بدا ما كان كامنًا فيها كأنهُ ابن يومهِ . ومن اغرب ما اتى به المريض الذي اشرت اليهِ وذكرت حكايتهُ في الشفاء انهُ في اثناء مرضهِ الذي دام بهِ اكثر من شهرين ذكر تاريخ حياتهِ بالتفصيل والاعجب انهُ ذكر وقائع دعوى كانت لهُ في المجالس دامت ثلاث سنوات تم خسرها وكانت خسارتهُ لها سببًا لاستيلاء المرض العصبي عليهِ بعد ذلك على الفور . حتى انهُ ذكر المرافعات التي جرت فيها امام القضاء كأنها منقولة بالحرف وبفصاحة تفوق طورهُ جدًّا في حال الصحة . فليس بدعٌ ان يكون سبب التخيلات التي من مصدر باطني والتي تجعل الانسان في بعض احوال خصوصية يسمع ويرى ويلمس ما ليس لهُ حقيقة في الظاهر فزع الذاكرة نفسها للحواس المتهيجة كما في الجنون وما دونهُ من احوال اضطراب العقل بالمؤثرات المختلفة في الاعصاب المتهيجة وهي درجات كثيرة بين الصحة والمرض . ومعلوم كذلك امر الاستهواء الذاتي حتى تصير احلام الانسان لديهِ حقائق وحتى يصير بالنظر اليها بوجدانين متباينين بحسب سرعة تقلب احوالهِ العصبية يسمع حينما يخاطب الآخر وكثيرًا ما يشعر الواحد انهُ تحت سلطان الآخر يأتمر بأمرهِ حتى يزول منهُ الاضطراب العصبي الكلي كما في الجنون والجزئي كما في الاحوال المستيرية المتخيلة بحسب نوعها فيرجع انسانًا اعتياديًّا لا يتأثر بغير ما يتأثر بهِ الناس عادة . ومن هؤلاء طائفة من الناس ليس بهم جنون حقيقي او ظواهر هستيريَّة ظاهرة للعيان بل بهم من كل ذلك ظاهرة واحدة مقتصرة على امر واحد فقط وهي تهيج مركز واحد من مراكز قوام العصبية بحيث يتسخر الاستهواء فيهم على فكر واحد او شعور واحد كما هو شأن سند واضرابهِ في اعتقادهم انهم يكشفون او يعملون عملاً تحت سلطان شخص آخر غريب عنهم . ولا شك ان كثرة اشتغال العقل بموضوع يخافهُ او يهواهُ تهدهُ لاستيلاء مثل هذه الحالة عليهِ واحداث الاضطراب الشديد في جزء من اجزاء دماغهِ مع سلامة باقيهِ كما هو مشاهد كثيرًا في عموم الناس لمن يتدبر ذلك كما ينبغي

والحاصل ان الحوادث الغريبة من مثل التي ذكرها سند ليست بالحقيقة عجائبًا خالية من سبب طبيعي معلوم كما يذهب بعضهم ولا هي وحي او شبه وحي كما يذهب كثيرون وانما هي تخيلات الذاكرة لمعلوماتها الباطنة او تأثر الحواس تأثرًا قياسيًّا بالمؤثرات الخارجيَّة البعيدة الطبيعيَّة لوجود كل من المؤثر او ناقل التأثير او قابله او كلهامعًا في احوال خصوصية تزيل من بينها كل حجاب كان يحول دون الشعور بما يلزم الشعور به في كل الاحوال لولا تلك الموانع العارضة والتي ازال العلم الطبيعي وعلم الطب كثيرًا منها . وعليه فليس غريب في كل هذه الغرائب التي انجلت لنا اسرار جلها ان لم نقل كلها سوى غرابة الله عروضها لنا وخصوصًا طفورنا في تعليلها الى غرابة اغرب منها لا اساس لها الا نقل لا ينطبق على علم ولا يجيزهُ عقل حرصًا على مقتضيات اوهام ومقتضيات احلام الدكتور شبلي شميل

تولُّد السمع والبصر

هل السمع والبصر مولدان تولُّدًا بالنشوء الطبيعي . هل الاذن والعين وما فيهما من دقة الصنعة وإحكام التركيب قد تولَّدتا تولدًا بالتنوُّع الطبيعي وبقاء الاصلح كما تولد التفاح البستاني الكبير الثمر الحلو الطعم الذكي الرائحة من التفاح البري الصغير الدميم الحامض . او كما تولدت كل انواع الحيوان والنبات حسب رأي علماء الطبيعة . او هما مخلوقان بادئ بدء في الانسان وفي كل انواع الحيوان كما تراهما الآن

ان علماء الطبيعة يقولون لك ان العين والاذن مولدتان تولدًا بالنشوء الطبيعي المستمر فقد كان زمان لم تكن العين ظاهرة فيه ولا كانت الاذن بارزة ولا كان فيهما شيء من التركيب ودقة الصنعة التي تراها فيهما الآن كما سيجيء

والصوت الذي تشعر به الاذن والنور الذي تشعر به العين كلاهما اهتزاز يصل الى السماع الاول بواسطة الاذن والثاني بواسطة العين لكن اهتزاز الصوت بطيء ولا بدَّ له من مادة جامدة او سائلة او غازية يقوم بها فلا يسير في مكان خالٍ من المادة . واهتزاز النور سريع جدًّا ويسير على جناح الاثير الذي يقال انهُ موجود في كل فراغ وبين دقائق الاجسام

والجلد يشعر بالاهتزاز . وهو في الحيوانات الدنيا التي ليس فيها اعضاء خاصَّة بالبصر ولا بالسمع يشعر باهتزاز النور واهتزاز الصوت . اي ان تلك الحيوانات تستدلُّ على الصوت والنور بجلدها . فاذا اتفق ان اخصر شعورها هذا في بعض اجزاء جلدها فذلك انفع لها على